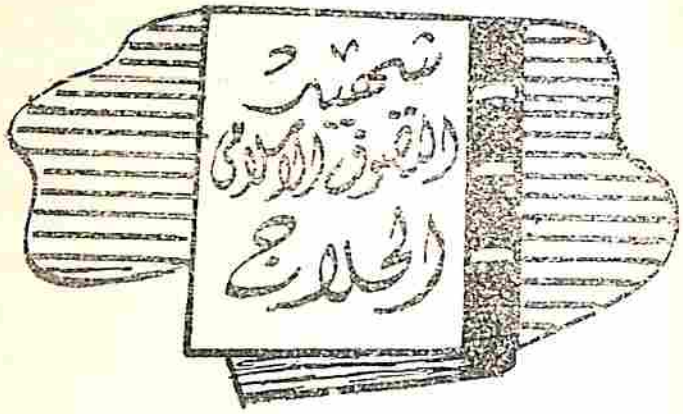

(٥)

بقلم الأستاذ
طه عبد الباقي سرور

الحلاج فى بغداد :

وخفق قلب بغداد للنبأ العظيم ، لقد جاء الحلاج إليها تسبقه عواصف مرعدة مذهلة ، من الدعاوى العريضة المتناقضة، جاء إليها بعد أن طوف بالأرض ، فملأ آفاقها دويا ، وأسمع آذانها عجبا ، فقد ترك الحلاج فى كل بقعة رن فيها خطوه ، ما يختلف فيه الناس ، وما يتخاصمون فى أمره

فما رأى الناس من قبل رجلا له سمته وشخصيته وقواه وروحانيته ، رجلا يتصدى لهداية الإنسانية كافة ، فيطرق أبواب العالم شرقا وغربا ، مبشرا وداعيا إلى الله سبحانه ، دعوة أساسها وروحها حب الله ، حبا تذوب فيه شهوات الدنيا ، وينطفىء لهيبها ، وتتضاءل فيه أهواؤها وسحرها ، فإذ بكل ما فيها قبض الريح ، وإذ تاجها ونعيمها وفوزها الأكبر فى الإتصال بواجب الوجود ومبدعه ، اتصالا ينير الروح ، ويشغل القلب ، ويوقظ الحس ، فإذا بالإنسان فى تجل مشرق عظيم ، قوة ربانية تملك أسرار الكون ، كما تملك مدارج الصعود ، إلى حياة النور والخلود ، وتملك فوق هذا وذاك القدرة على تحقيق رسالة الإنسان الكامل ، خليفة الله الذى

اصطفى منه كليمه ، وخليله ، وحبيبه

وفى خلال هذه الدعوة الروحية الربانية ، لا يفنى الحلاج عن دنياه ، كما فنى غيره من الصوفية ، ولا تذهله الاشراقات والمعارج والمحبة الربانية عن حقيقة الحياة الأرضية ، بل هو يقرع سمع الدنيا بدعوته الاصلاحية ضد المفسدين فى الأرض من الملوك والأمراء ، ومن يمشى فى مواكبهم من محترفى الدين والدنيا ، فيطالب بخلافة مؤمنة مهتدية تحمل الناس على الصراط المستقيم ، وحكومة قرآنية تشعر بواجبها حيال الله ، شعورها بواجبها حيال الإنسان .

وضد المفسدين فى الروح والفكر والقلب ، من علماء الكلام والمنطق والتوحيد ، ومحترفى الجدل الدينى ، والحوار اللفظى ، الذين مزقوا دينهم شيعا ، وأحالوه عوجا ، بعد أن كان شرعة محكمة لا تعرف جدلا وحوارا ، وإنما تعرف عملا وإيمانا .

وتمتزج شخصية الحلاج بجوهر رسالته . فيؤثر كلاهما فى الآخر ، تأثيرا هو سر ما يضطرب فيه الناس من أمره ، ومما يتجادلون حيال سيرته وحقيقة دعوته .

كان الحلاج متوهج النفس ، مشتعل الحس ، جياش القلب ، ثائر الوجدان ، رهيف العاطفة ، يملك قوى خارقة ، من المغناطيسية الروحية التى تؤثر فى كل شىء يتصل به ، أو يدنو منه .

وكان فوق هذا ، واسع الخيال ، ساحر البيان ، رائع التصوير ، صادق الشعور ، اخلاه الزهـــد ، وحلاه النسك ، وجلاه الحب ، اكسبته طاعاته ومجاهداته نورا مشرقا مشعا متوددا عطوفا ، تتدفق منه تيارات ساحرة محببة ، تدنيه من كل قلب ، وتمزجه بكل عاطفة .

يقول المستشرق « نيكلسون » ـ اعتاز الحلاج بأنه عاش فى صوفيته تماما ، عاش فى كل لفظ قاله ، وفى كل خاطر مر به حتى لقب بمسيح الإسلام ـ .

ويقول العلامة الفرنسى « ماسنيون » ـ إنه حى ما قال ، وقال ما حى ـ وعند ما قارن بين محيى الدين والحلاج قال : « أنا اعتقد أن ابن عربى معرفته أكبر من روحه ولكن روح الحلاج

أكبر من معرفته » .

كان الحلاج روحا عظيما ، بل لعله أكبر روح في عالم التصوف. يقول علي بن أنجب الساعي : « لقد بلغ من صفاء روحه أنه كان يستشف الغيب من ستر رقيق ، ولقد عزيت إليه نبوءات صادقة، استرعت أنظار الدنيا »

وتلك الصفات التي اتسم بها الحلاج ، وطبعت تاريخه ، وصاغت دعوته ، صفات فيها اغراء ، وفيها استهواء ، حتى لقد فتن بسحر الحلاج الروحي قوم ملؤا الدنيا حوله بالأساطير الملونة المبدعة ، ودقوا طبول الدعوة العالية ، لخوارقه المذهلة ، حتى جعلوه عليما بالغيب ، قادرا على احياء الموتى ، مسخرا لعناصر الطبيعة وجواهرها .

وهي صفات أيضا تترك حولها حقدا غليظا ، وحسدا مسموما ، وجحيما مشتعلا من البغضاء ، فتصدى للحلاج قوم ، جمعوا كل ما في الدنيا من فجور وشر ، وراحوا يفترون عليه ويقذفونه بوجوه ، ويسودون تاريخه بأبشع ما يتصور ويتم ، وبغضاء

نفوسهم .

وبتلك الحالة ، وعلى قرع تلك الطبول ، دخل الحلاج بغداد . وكانت بغداد في عصره هي الدنيا كما يقول رجال التاريخ :

كان يحمل إليها خراج الأرض فتنبض جنباتها بالترف ، وما يدفع إليه الترف ، من شهوات وفجور .

وكان يلتقي فيها تراث الفكر العالمي، بموارث الحضارة الإسلامية فتموج آفاقها بكل لون من ألوان الفكر والمعرفة .

كان فيها الماديون على اختلاف مناهجهم ومللهم ، من الفلاسفة العقليين ، إلى المتمردين الملحدين وكان فيها الروحانيون على اختلاف أذواقهم ، من العباد المتصوفين ، إلى المنجمين والمتألهين ، والمتصلين بالارواح والشياطين .

وتحولت مساجد بغداد ومدارسها وندواتها إلى ساحات للحرب الفكرية ، بين فرق وألوان ومذاهب لا حصر لها :

وإلى ساحة بغداد بل إلى ساحات

الصراع المشبوب الأوار ؛ دلف الحلاج ؛ تحيط به حاشيته ؛ وتسبقه دعوته :

واهتزت عمائم العلماء في أروقتهم الفكرية ، وتطلعت حلقات الصوفية وأرهفت سمعها ، وترددت همسات في قصر الخلافة ؛ وتخاطفت الجماهير ، الأحاديث الملونة ، عن الرجل المبارك ، صانع المعجزة والكرامة . .

ومن ثم ، رأينا التاريخ يحدثنا عن شيوخ كبار من البيئات الصوفية والفقهية ، وعن أئمة من أساتذة الكلام والتوحيد والفلسفة . وهم يسعون إلى الحلاج ويلتمسون لقاءه ، والتحدث إليه ، وفي لهواتهم جدل عنيف ، وفي عقولهم تحد غليظ ، وفي قلوبهم تلهف حار ، يحاول أن يتعمق فهم رسالة الداعية الذي تحيط به الرعود والبروق .

وتعددت الاجتماعات ، وتوالت الندوات ، وطال الجدل والحوار ، والتهبت الكلمات ، واختصمت العقول وتفرقت القلوب ، وأصبحت الخصومة سافرة ، فقد جاء الحلاج إلى بغداد يحمل منهجا ورسالة ، ويندفع في عنف إلى هدف وغاية .

ولم تكن البيئات العلمية في بغداد على استعداد عقلي لأن تسلم الحلاج بمنهجه الصوفي ، بنسكه ومواجيده وأذواقه . ولم تكن المجتمعات الصوفية في بغداد على استعداد نفسي يؤهلها لأن تسهم مع الحلاج في دعوته الإصلاحية ، وأهدافه الثورية .

المنهج الحلاجي .

ومن ثم حفظ لنا تاريخ الحلاج رغم غموضه وتمزقه ، مناظرات وجدليات خاض الحلاج غمارها ضد مفكري عصره وعلمائه ومتصوفيه كما حفظ لنا تراثا حلاجيا يشكل منهجا فكريا متكاملا متناسقا ، له طابعه العلمي وخصائصه الروحية .

وهذا المنهج الحلاجي الثقافي ، يتسم في كل جزئية من جزئياته بذلك الوجد الصوفي ، والحب الإلهي ، الذي استأثر بعقل الحلاج وقلبه وروحه ، استئثارا ملحا عنيفا .

الحلاج وعلماء الكلام

وعلى ضوء هذا المنهج نستطيع أن نتفهم محاولات الحلاج مع علماء

الكلام . فى الأمر والإرادة والمشيئة الإلهية ، وفى أفعال العباد . وتعلقها بالقضاء والقدر .

فالحلاج يعتمد على التجربة الصوفية المباشرة ، لحل مسألة الصلة بين اللطف الإلهى والقضاء والقدر .

تلك المشكلة التى ترجع إلى النزاع بين الخير الذى يأمر به الله — الأمر — وبين الشر الذى يتنبأ بوقوعه — الإرادة — ويرضى الحلاج بهذا النزاع بدلا من أن يخفيه . فهو يعلم أن لا حيلة للعلم للوصول إلى الماهية الإلهية ، بل إن الحب هو الطريق اليها .

إذ ليست المعرفة الفكرية للقضاء الإلهى هى التى تقربنا من الله ، بل إنما هو خضوع القلب للأمر الإلهى فى كل لحظة ، لأن الأمر غير مخلوق بينما الإرادة مخلوقة .

وهكذا يضع الحلاج حدا لنقاش متكلمى عصره حول هاتين الكلمتين — الأمر عين الجمع . والإرادة عين العلم — فكل قلب إذن يشغله السعى وراء الجزاء ، عن حرمة الأمر ، إن هو إلا مرتزق ، وليس بخادم حق الله .

وقد تبنت « السالمية » هذه التفرقة وعدتها مستشهدة على ذلك بموضوع — طاسين الأزل — للحلاج ، فلقد كان أمر الله فى دعوته لإبليس لأن يسجد لآدم أمرا شكليا ، ولم تكن تلك إرادته ، وإلا لسجد ابليس ، لأن كل ما يريده الله واقع .

ذلك هو موضوع البلاء الذى لا مفر منه للإنسان كى يكون قديسا (١) .

ولهذا يوصى الحلاج المريد بأن يكون مع الحق بحكم ما أوجب ، ويقول : « من لم يؤمن بالقدر فقد كفر ، ومن أحال المعاصى على الله فقد فجر » .

وأسماء الله سبحانه عند الحلاج من حيث الإدراك أسماء ، ومن حيث الحق حقيقة .

وكان يقول « لا يجوز لمن يريد غير الله ، أو يذكر غير الله ، أن يقول عرفت الله ، ومن عبد الله لنفسه فإنما يعبد نفسه ، ومن

(١) مقدمة الطواسين للماسنيون .

استصحب كل نسك فى الدنيا والآخرة ، وهو جاهل لا يقرب من الله أبداً ،

والصلاة عند الحلاج هى المعراج الذى يصل النفس مباشرة بالله ، وقراءة القرآن عنده إنما تكون بإحساس ومشاهدة ، فكأن الله سبحانه يتلو على لسان القارىء ؛ أو كأن القارىء يستمع إلى الله سبحانه . ومن هنا نشأت حالات الوجد العظمى التى عرف بها الحلاج عند السماع

والكون عند الحلاج مادى وروحى كالإنسان ، والعبادة تخلق وعياً كونيا .

والإيمان عنده : قول ، وتصديق ، وعمل ، والولى هو الدليل الحى على الله .

وبذلك وضع الحلاج أول مذهب كلامى فلسفى للصوفية ، مما سنعرض له عرضا شاملا فى الفصول القادمة إن شاء الله ، وعن الحلاج تلقت المدرسة السالمية فلسفتها الكلامية التى تراها عالمية الصوت فى تفسير السلمى.

الحلاج وتفسير القرآن .

والمنهج الحلاجى الذى ذكرناه يتجلى بصورة متلألئة فى تفسيره للقرآن ، وتفهمه لآيه .

وللحلاج تفسيرات تناولت آيات الذكر الحكيم جملة وتفصيلا وهى تفسيرات أحاطها ما أصاب تاريخ الحلاج كله ، من تمزيق وتبديد ، وبقيت من هذه التفسيرات لمع ترشد إلى المنهج وتومىء إلى الفكرة .

وأبو عبد الرحمن السلمى يدور فى تفسيره الصوفى حول نظرات الحلاج فى التفسير . كما حفظ لنا العلامة « روزبهان البقلى » فى تفسيره ـ عرائس البيان ـ شذرات من تفسير الحلاج . نقتبس منها نماذج لهذا اللون من التفسير والتفكير .

يقول الحلاج فى تفسيره لقوله تعالى . « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » .

ـ العبد مبتلى بالأمر والنهى ، ولله فى قلبه أسرار تخطر دائما ، فكلما خطر خاطر ، عرضه على الكتاب فهو طاعة الله ؛ فإن وجد له شفاء ؛ وإلا عرضه على السنة ؛ وهى طاعة الرسول ؛ فإن وجد له شفاء ، وإلا

عرضه على سير السلف الصالحين ، وهو طاعة أولى الأمر » .

ويقول فى تفسير قوله تعالى : «ألست بربكم . قالوا بلى » حينما سأل الأرواح فى عالم الذر :

« . . . لا يعلم أحد من الملائكة المقربين : لماذا أظهر الحق الخلق ، وكيف الإبتداء والانتهاء ، إذ الألسن ما نطقت . والأعين ما أبصرت ، والأذن ماسمعت ؛ كيف أجاب من هو عن الحقائق غائب ؛ وإليه آيب. فى قوله - ألست بربكم - فهو المخاطب والمجيب . . . قالوا : بلى ؟ ، القائل عنكم سواكم ؛ والمجيب عنكم غيركم، فسقطتم أنتم أو بقى من لا يزل ، كما لم يزل » .

ويقول فى تفسير قوله تعالى : «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم » - نفوس المؤمنين عالية لاتباع ولاتشترى ولا تذل فلا يملكها سواه

ويقول فى تفسير قوله تعالى : «فذلكم الله ربكم الحق » - الحق هو المقصود بالعبادات ، المسعود إليه بالطاعات . لا يشهد بغيره ؛ ولا يدرك سواه

قال أبو عبد الرحمن السلمى : «سئل الحسين بن منصور ، من هو الحق الذى تشيرون إليه . قال : معل الأنام ، ولا يعقل :

وفى تفسير قوله تعالى : «وجعلنا بعضكم لبعض فتنة » : المحنة لخواص أوليائه ، والفتنة لعامة الناس .

ثم يقول : أبدى الله الأكوان كلها بقوله (كن) أهانة لها وتصغيرا ليعرف الخلق إهانتها ، فلا يركنوا إليها ؛ ويرجعون إلى مبدئها ومنشئها فاشتغل الخلق بزينة الكون فتركهم معه ، واختار من خواصه خصوصا أعتقهم من رق الكون ، فأحياهم به فلم يجعل للعلل عليهم سبيلا ، ولا للآثار فيهم طريقا » .

ويقول فى تفسير قوله تعالى: «وهو معكم أينما كنتم » - ما فارق الأكوان الحق ولا قارنها: كيف يفارقها وهو موجدها وحافظها وكيف يقارن الحدث بالقدم، قوام الكل ؛ وهو بائن عن الكل »

وفى شرح قوله تعالى «ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ؛ ولا خمسة إلا هو سادسهم » قال:

- هو معهم علما وحكما ؛ لا نفسا وذاتا - .

وقال فى شرح قوله تعالى : « وصوركم فأحسن صوركم » - . . . أحسن الصور ، صورة اعتقت من ذل كن . . ؟ وتولى الحق تصويرها بيده ؛ ونفخ فيها من روحه ؛ وألبسها شواهد البعث ، وجلاها بالتعليم ؛ وأسجد لها الملائكة المقربين ، وأسكنها فى مجاورته ، وزين باطنها بالمعرفة وظاهرها بفنون الخدمة ، وخلق آدم على صورته أى صورته التى صوره عليها ، فأحسن صورته -

ويقول فى شرح قوله تعالى : « فلا أقسم بما تبصرون ومالا تبصرون » بما تبصرون . أى ما أظهر الله تعالى : الملائكة ، والقلم ، والروح واللوح ، وما لا تبصرون ما اختزن من خلقه الذى لم يجر القلم به ، ولم يشعر الملائكة بذلك . وما أظهر الله الخلق من صفاته ، وأراهم من صنعته ، وأبدى لهم من علمه فى جنب ما اختزن عنهم ؛ كذرة فى جميع الدنيا والآخرة ، ولو أظهر الله تعالى من حقائق ما اختزن ؛ لذاب الخلق عن آخرهم فضلا عن حملها

والحلاج يرى أن فى القرآن علم كل شىء ، وعلم القرآن فى الأحرف التى فى أوائل السور .

ويقول : إن كل هذه العلوم القرآنية . قد أحاط بها رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وهى للعارفين بحكم الميراث المحمدى ، وهى سر الحكمة والجلال الذى يشرق فى أقوال العارفين من الصوفية . .

البحث مستمر

طه عبد الباقى سرور

* * *